تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الثالث:

العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم

مواقف فقهاء المغرب والأندلس من أفعال متصوفة زمانهم في القرنين 8 و9 هـ/ 14و15م.

قريان عبد الجليل.
جامعة قالمة.

الملخص:

لقد شكلت العلاقة بين الفقهاء والمتصوفة في المغرب والأندلس جزءا من ديناميكية المجتمع في صياغة الحياة الثقافية وامتداداتها على المستويات السياسية، نظرا لما تكتنزه هذه العلائق من تأثير ونفوذ في حركية المجتمع وفي منحى سيره وتطوره.

وتأتي هذه الورقة للكشف عن جانب من جوانب هذه العلاقة في إحدى زوايا الممارسات الصوفية، وترصد مواقف الفقهاء منها، وتلمس أطر التوافق أو التناقض والتعارض بينها، ومحاولة تفسير ذلك في إطار من تاريخية المنطقة التي كانت الوعاء الذي نشأت وترعرعت فيه، وكيف ساهمت هذه العلاقة في ترسيخ الرؤى في العصور اللاحقة.

إن اختلاف الرؤى في طبيعة الممارسة الصوفية من حيث بعدها أو قربها من التوافق الإسلامي ساهم في الكشف عن الانزوائية التي عايشت الأطراف ورهنت قضايا علمية وعملية وسلوكية وفقا لنظرات بعيدة في مجملها عن التواصل البيني والتحقيق العلمي والميداني الذي كان شبه غائب في إصدار الأحكام ومن ثم كانت تلك المقابلة التاريخية بين الفقهاء والصوفية، وكان لاستمرار هذه الوجهة أثار تاريخية كبيرة في تحديد الرؤى وتحجيم كل طرف لغيره وفي المفاصلة القائمة والمستمرة إلى العصور اللاحقة.

إن هذه الورقة محاولة لإعادة اللحمة العلمية والتواصل العلمي بين وجهتين كان الأجدر أن تتكاملا وفقا لروح الإسلام وتعاليمه الخالدة.

تمهيد:

قبل الولوج في صلب الموضوع ينبغي التعرض ولو بإيجاز شديد إلى الزاوية، ذلك الإطار الذي اشتهرت به الصوفية ونمت فيه ممارساتهم وأصبح عنوانا عليهم كلما ذكره الذاكرون.

يبدو أن الزاوية بالمغرب الإسلامي رديفة لكلمة "الرباط" بالمشرق الإسلامي، يؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن مرزوق في مسنده بقوله:" وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الربط"[1]، وللرباط معنيين:

معنى فقهي: وهو احتباس النفس في الجهاد والحراسة في ثغر من الثغور المتاخمة للعدو[2].

معنى تصوفي: وهو عبارة عن الموضع الذي تلتزم فيه العبادة [3]، فهو "بيت الصوفية ومنزلهم"[4].

وعن هذا المعنى الأخير قال أبو حفص السهروردي[5]:" وشرائط سكان الرباط، قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب اكتفاء بكفاية مسبب الأسباب، وحبس النفس عن المخالطات، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة، متعوضا بها عن كل عادة، والانشغال بحفظ الأوقات، وملازمة الأوراد،وانتظار الصلوات، واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا"[6].

والظاهر أن الزاوية في بلاد المغرب بعد أن تولدت عن الرباط[7]، قد أخذت المعنى التصوفي واستغرقت حياتها فيه، بينما تخلّت عن المعنى الفقهي، للاستكانة التي كانت عليها الأمة تجاه " الانحلال الداخلي والخطر الخارجي "[8].

---

(1) ص 411 .وثمة إشارة إلى وجود "رابطة" في بلاد المغرب قبل ذلك، انظر:

ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي: التشوف إلى رجال التشوف، تحقيق: أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس ، ط1، 1404هـ/1984م، جاء فيه:"فمر برابطة بعض المنقطعين"، ص103.

(2) المقريزي: الخطط ،ج2، ص427 ، جاء فيه:" الربط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطا " ،و" قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن ورائهم رباط " .

(3) ابن مرزوق: المصدر السابق ، ص 411. وانظر كذلك:

برنشفيك: تاريخ إفريقيا ، ج2، ص335.

(4) المقريزي: المصدر السابق ، ج2، ص 427. ابن مرزوق: المصدر السابق ، ص 412 .

(5) السهروردي أبو حفص: من فقهاء وعلماء الصوفية في بغداد، صاحب كتاب "عوارق المعارف"، توفي سنة 632هـ/1234م، انظر ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص 446. الزركلي خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين،ط7، 1406هـ/1986م، ج5، ص 143. دائرة المعارف الإسلامية، ج12، ص 296.

(6) المقريزي: المصدر السابق ، ج2 ، ص 427 .

(7) وسيلة بلعيد بن حمدة: الزاوية ودورها التربوي والإجتماعي ، الهداية عدد4، سنة19، 1415هـ/1995م ،ص 29.

(8) سعد الله: تاريخ الجزائر ،ج1، ص36-37 .

وقد عم انتشار الزوايا في المغرب الإسلامي والأندلس، ففي المغرب الأقصى توجد الزاوية الحديثة بمدينة فاس[9]، والزاوية القديمة والحديثة بمدينة مكناس[10]، ورباط الشيخ أبي محمد بمدينة آسفي[11]، وزاوية الحاج عبد الغني بمدينة سلا[12]، وفي تونس، توجد زاوية الشيخ أبي يوسف الدهماني، وزاوية الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي بالقيروان[13]، كما أنشأ السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز[14] ثلاث زوايا وهي: زاوية باب البحر من تونس، والزاوية التي خارج باب أبي سعدون بحومة باردو، والزاوية التي بحومة الداموس خارج باب علاوة المعروف بالشيخ الصالح سيدي فتح الله [15]، وزاوية يعقوب بن عمران البويوسفي المسماة بالزاوية الملارية بفرجيوة[16].

وفي المغرب الأوسط، تكونت مجموعة من الزوايا، منها: زاوية العباد[17] بظاهر تلمسان، وزاوية سيدي ابن الحسن التي شيدها السلطان أبو سعيد عثمان الزياني[18]، وزاوية الحلوي[19] بجانب مسجد الشيخ الحلوي، وزاوية أبي عبد الله [20]، وزاوية أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي[21]، وزاوية الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان، قرب المدرسة الجديدة التي جدد بناءها السلطان أبو العباس أحمد العاقل[22]، وزاوية ابن البناء[23]، وزاوية أبي يعقوب العشاشي بشلف [24]،كما وجدت بعد ذلك في

---

9 ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص312.

10 نفسه ، ص371.و المقري: نفح الطب ج7 ص313.

11 نفسه، ص71.

12 ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير ، نشره وصححه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1385هـ/1965م، ص84.

(13)وسيلة بلعيد بن حمدة: الزاوية ودورها التربوي والإجتماعي، الهداية عدد4، ص 29.

(14) تولى في شعبان سنة 769هـ/1393م، انظر:

الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 114. والحريري: تاريخ المغرب الإسلامى، ص385.

(15) الزركشي: المصدر السابق، ص 116 . ابن قنفذ: الفارسية، ص 196.

16 ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر ، تونس 1388هـ/1968م، ص164.

(17) يحيى بن خلدون: البغية، ج1، ص413 . ابن مرزوق: المجموع ورقة 54.

18 جوليان شارل اندري: تاريخ إفريقيا الشمالية ، ترجمة:محمد مزالي وبشير سلامة ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1389هـ/ 1969م ،ج2، ص210.

(19) ابن مريم: البستان، ص 33، 89.

الحلوي هو: أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، نزيل تلمسان، من أكابر العلماء والعباد، توفي بتلمسان، انظر ترجمته في: ابن خلدون يحي: البغية ،ج1، ص 127. ابن مريم: البستان، ص 68.

(20) ابن مرزوق: المجموع ورقة81.

(21)نفسه ورقة91.

(22) التنسي: نظم الدر، ص248 .

(23)عليوان: السنوسي، ص23.

القرن التاسع" زاوية الثعالبي" في مدينة الجزائر، وضريح محمد الهواري[25] في وهران، وزاوية السنوسي بتلمسان"[26]

أما في الأندلس فتوجد مجموعة من الزوايا منها زاوية المحروق بظاهر غرناطة[27].

وقد اضطلعت الزاوية بوظيفتين أساسيتين: وظيفة تعليمية، ووظيفة اجتماعية،و سوف نقتصر على النقطة الأولى لأهميتها في الموضوع.

لقد مرت الوظيفة التعليمية للزاوية بثلاث مراحل:

– المرحلة الأولى: **اهتمت الزاوية في مرحلتها الأولى بالمشاركة الفعّالة في نشر العلم، ذلك أنها كانت تشكل مؤسسة من مؤسسات التعليم العالي[28]، فقد جعلت من مهامها تحفيظ القرآن الكريم، وتدريس العلوم النقلية،و بعض العلوم العقلية، كالفرائض والحساب [29]، وكان يعهد بالتعليم فيها إلى كبار العلماء من أمثال " أبي عبد الله أحد كبار الأعلام المشاهير، الذي كان يُدرّس بزاويته الحديث من موطإ الإمام مالك بن أنس"[30] .**

وكان الطلبة يقبلون على التعلم في الزوايا، وينهلون من معارفها، ويتمتعون بالإقامة في بيوتها[31]، مما جعلها في تعليمها شبيهة بالمدارس، فنشرت العلم، وعمّمته على طبقات الناس المختلفة، وشاركت في تنوير الأمة، وفي فك عزلتها الثقافية .

---

(24) الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1398هـ/1978م ، ص 60.

(25) محمد بن عمر بن عثمان الهواري: الولي الصالح، سافر من فاس إلى المشرق للحج ورحل إلى مصر ثم القدس وجال بالشام واستقر أخيرا بوهران وبها توفي سنة 843هـ/1439م، انظر ترجمته في:

الزياني: دليل الحيران ، ص41.

التنبكتي: النيل، ص 516.

ابن مريم: البستان ، ص 228.

الحفناوي: التعريف ،ج1، ص 174.

(26) سعد الله: تاريخ الجزائر ،ج1، ص 39–40 .

27المقري: نفح الطيب دار الفكر ط1 1419هت/1998م، ج6 ص 168.

(28) سعد الله: تاريخ الجزائر، ج1، ص 35 .

(29) وسيلة بن بلعيد بن حمدة: الزاوية ودورها التربوي والإجتماعي، الهداية، عدد 4 ص29.

بونابي الطاهر: الحركة الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (12–13الميلاديين)، رسالة ماجستير– جامعة الجزائر– معهد التاريخ، السنة الجامعية 1419هـ/1420هـ–1999م/2000م، ص273.

(30) ابن مرزوق: المجموع ، ورقة 81.

(31) الونشريسي: المعيار، ج7، ص292 .

– المرحلة الثانية: **في هذه المرحلة تخصصت الزاوية في تعليم القرآن الكريم، وإلقاء دروس" الوعظ والرقائق "[32]، وقراءة الكتب المتعلقة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه، مثل: كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"[33]للقاضي عياض[34]، والاهتمام بأخلاق الصالحين[35]و أخبارهم، والاعتناء الكبير بأنواع ذكر الله عز وجل، من التهليل، والتسبيح، والتقديس[36]، وأصبحت لهم فيها عوائد لا يستطيعون التخلي عنها.**

وفي هذه المرحلة يلاحظ تعايش بعض الفقهاء مع المتصوفة[37]، نظرا لأن المادة العلمية والأوراد التي كانت تعطى داخل الزوايا لم يكن فيها ما يُشكّل انحرافا واضحا عن الدّين، لذا اختلفت فتاوى العلماء في تقدير هذه الطرق، وفي شرعيتها بين الحلّ والحرمة، وقد أورد الونشريسي في المعيار نماذج عن الأسئلة التي وردت على مجموعة من العلماء بشأن هؤلاء المتصوفة، وكانت أجوبتهم مختلفة باختلاف الأسئلة، مما يؤكد أن كل مجموعة من هؤلاء المتصوفة لها خصوصياتها في التعامل مع الأوراد، ولم تكن في تلك الفترة على نمط واحد، وطريقة واحدة،و كانت مواقفهم تابعة لما اختص به كل فقيه وما علمه من حال كل طريقة وعملها فيما يتعلق بالعبادة والذكر، وتوزعت في مواقف ثلاث. اعتمادا على بعض الأسئلة المطروحة والإجابة عنها من طرف بعض العلماء:

الموقف الأول: الموافقة والمساندة .

هذا الموقف اتسم أصحابه بالموافقة الصريحة وإيفاء الفتاوى التي تحسن صنيعهم وتحبب أعمالهم للناس وإزالة اللبس الشرعي الذي يبدو أنه كان ينتاب هذه الأعمال من طرف العامة والخاصة، ولتبرر ما يقوم به المتصوفة، وسو ف نقتصر على بعض الفتاوى .

---

(32) نفسه ،ج11 ، ص49 ،105 .

(33) نفسه ، ج11، ص49 .

(34) القاضي عياض هو: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، إمام وقته في الحديث، وعلوم النحو، واللغة، وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم، توفي بمراكش سنة 544هـ/1149م، انظر ترجمته في:

ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص222.

ابن خلكان: وفيات العيان، ج3، ص483.

المقري: أزهار الرياض ، ج1، ص23–29.

مخلوف: شجرة ، ص 140.

(35) الونشريسي: المعيار، ج11، ص49 .

(36) نفسه، ج11، ص105 .

(37) الشاطبي أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي: الاعتصام، دار اشريفة الجزائر بلاتا، ج1 ص193.

الونشريسي: المعيار ، ج11، ص39، 41.

سئل الفقيه العالم أبو محمد بن محمد بن موسى العبدوسي[38]عن"مسألة، وهي أن عندنا جماعة بموضع منقطعين إلى العبادة من الصلاة، والصيام، وقراءة القرآن، وتعليم أولاد المؤمنين، والسعي في قضاء حوائجهم، والأرامل، والأيتام، والمساكين، والإصلاح بين المسلمين، مثابرين على ذلك، مداومين عليه، وفيهم رجل له عليهم شفوف العلم، معه منه حظ وافر مما يحتاج إليه في دينه، من فقه، وتصوف، اتخذه أصحابه شيخا في ذلك وقدوة، وكلهم ظاهروا الخير، صالحوا الأحوال، غير أنهم يجتمعون في المولد وشبهه للوعظ والتذكير، وربما أنشد لهم منشد أشعار في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يناسب ذلك مما يحث على الطاعة من غير اجتماع نساء ورجال في ذلك، وطعن بعض الناس عليهم في ذلك، وقال هذه بدعة ومنكر ..."

فأجاب:" الحمد لله وحده دائما، الجواب والله سبحانه الموفق للصواب يمنه: إن أحوال الجماعة المذكورة أدام الله استقامتهم، وأحسن على طاعته معونتهم بمنّه، أحوال حسنة مرضية شرعا، فـ ﴿ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾ [39]، واجتماعهم لما ذكر اجتماع على طاعة مستحبة، تثمر خيرات من الخوف، والرجاء، والصبر، والزهد، إلى غير ذلك من المقامات العلية، والأحوال السنية [...] وما ذكرتم خيور محضة، لا تشوبها آفة، ولا تكدّرها مفسدة"[40].

الموقف الثاني: الرافض والمتشدد.

ثمة فئة أخرى من الفقهاء كان موقفها رافضا جملة وتفصيلا كل ما يقوم به المتصوفة باعتبارها من البدع المنكرة التي يجب أن ينهى عنها، تحريما لها وتبديعا لأعمالها وتنفيرا منها ومن أصحابها وكل ما له علاقة بها، بل والدعوة إلى محاربتها، واعتبار أهلها عند بعضهم أخطر من الكفار؟ وهذه بعض الفتاوى التي ترى هذا الموقف.

"سئل الشيخ أبو إسحاق الشاطبي[41] عن حالة طائفة ينتمون إلى التصوف والفقر، يجتمعون في كثير من الليالي عند واحد من الناس، فيفتتحون المجلس بشيء من الذكر على صوت واحد، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الغنا والضرب بالأكف والشطح، هكذا إلى آخر الليل، ويأكلون في أثناء ذلك طعاما يعده لهم

---

(38)أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن معطي العبدوسي الفاسي، مفتيها، وعالمها، ومحدثها ، توفي سنة 849هـ/1445م، انظر ترجمته في:

التنبكتي: النيل، ص 231. مخلوف: شجرة، ص 255.

(39)سورة النساء آية 73.

(40)الونشريسي: المعيار، ج11، ص47.

41 الشاطبي:هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي، المحقق النظار ، أحد العلماء الجهابذة ،و أكابر الأئمة الثقاة، الفقيه الأصولي المفسر، توفي سنة 790هـ/1388م، انظر ترجمته في:

التنبكتي: النيل ، ص 48. مخلوف الشجرة ، ص231.

صاحب المنزل، ويحضر معهم بعض الفقهاء، فإذا تكلم معهم في أفعالهم تلك، يقولون:" لو كانت هذه الأفعال مذمومة أو محرمة شرعا لما حضرها الفقهاء"[42].

فأجاب: " إن اجتماعهم للذكر على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن الصحابة، ولا من بعدهم، ولا عرف في ذلك قط في شريعة محمد عليه السلام، بل هو من البدع التى سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مردودة، ففي الصحيح أنه عليه السلام قال:" من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ"، يعني فهو مردود وغير مقبول، فذلك الذكر الذي يذكرونه غير مقبول[...] وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته:" أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّد، وشرّ الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة، وفي رواية، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة في النار، وهذا الحديث يدل على أن صاحب البدعة في النار والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وعن الحسن البصري أنه سئل فقيل له:" ما ترى في مجلسنا هذا ؟ قوم من أهل السنة والجماعة لا يطعنون على أحد، نجتمع في بيت هذا يوما فتقرأ كتاب الله وندعوا الله ربّنا، ونصلي عل النبي صلى الله عليه وسلم، وندعو لأنفسنا ولعامة المسلمين"، قال:"فنهى الحسن عن ذلك أشد النهي، لأنه لم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين، وكل ما لم يكن عليه عمل السلف الصالح، فليس من الدّين، فقد كانوا أحرص على الخير من هؤلاء، ولو كان فيه خير لفعلوه، وقد قال الله تعالى:" اليوم أكملت لكم دينكم"[43]، قال مالك بن أنس: فما لم يكن يومئذ دينا لم يكن اليوم دينا، وإنما يعبد الله بما شرع، وهذا الاجتماع لم يكن مشروعا فلا يصح أن يُعبد الله به"[44] .

ثم أورد الشاطبي رحمه الله حكاية عياض عن التنسي أنه قال:" كنا عند مالك وأصحابه حوله فقال رجل من أهل نصيبين: يا أبا عبد الله عندنا قوم يُقال لهم الصوفية، يأكلون كثيرا، ثم يأخدون في القصائد، ثم يقومون فيرقصون، فقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا، قال: أمجانين هم؟ قال: لا، قوم مشايخ وغير ذلك عقلاء، فقال مالك: ما سمعت أحدا من أهل الإسلام من يفعل هذا إلا أن يكون مجنونا وصبيا، فهذا بيّن أنه ليس من شأن الإسلام، ثم يقال: ولو فعلوه على جهة اللعب كما يفعله الصبي لكان أخف عليهم مع ما فيه من إسقاط الحشمة، وإذهاب المروءة، وترك هدى أهل الإسلام وأرباب العقول، لكنهم يفعلونه على جهة التقرب إلى الله والتعبّد به، وأن فاعله أفضل من تاركه، هذا أدهى وأمرّ، حيث يعتقدون أن اللهو واللعب عبادة، وذلك من أعظم البدع المحرمات، الموقعة في الضلالة، الموجبة للنار والعياذ بالله ؛ وأما ما ذكرتهم من شأن الفقيهين الإمامين، فليسا بفقيهين إدا كانا يحضران شيئا من ذلك، وحضورهما ذلك على الانتصاب إلى المشيخة قادح في عدالتهما، فلا يُصلَّى خلف واحد منهما حتى يتوبا

---

(42)نفسه، ص39.

(43)سورة المائدة آية 3.

(44)الونشريسي: المعيار، ج11 ، ص 40.

إلى الله من ذلك، ويظهر عليهما أثر التوبة، فإنه لا تجوز الصلاة ئخلف أهل البدع،نص على ذلك العلماء"[45].

ثم ختم ذلك بنداء لمحاربة هذه الفئة بقوله:" وعلى الجملة فواجب على من كان قادرا على تغيير ذلك المنكر الفاحش، القيام بتغيره، وإخماد نار الفتنة، فإن البدع في الدين هلاك، وهي في الدين أعظم من السمّ في الأبدان، والله الوافي بفضله، والسلام على من يقف على هذا، من كاتبه: إبراهيم الشاطبي، وتقيد بعقبه بخط المجيب رحمه الله مانصه: ما كتب فوق هذا ويمنته صحيح على حسبما كتب، فليروه عني من شاء على حسب ما وقع هنا والله الموفق للصواب، وكتب بذلك خطه العبد الفقير إلى رحمة ربه إبراهيم الشاطبي المذكور في العشر الأواخر لذي قعدة عام ستة وثمانين وسبعمائة" [46].

و" سُئل الشيخ الصالح أبو فارس عبد العزيز بن محمد القيرواني تلميذ سيدي أبي الحسن الصغير عن قوم تسموا بالفقراء، يجتمعون على الرقص والغنا، فإذا فرغوا من ذلك أكلوا طعاما كانوا أعدوه للمبيت عليه، ثم يَصلون ذلك بقراءة عشر من القرآن والذكر، ثم يُغنّون ويرقصون ويبكون، ويزعمون في ذلك كله أنهم على قربة وطاعة، ويدعون الناس إلى ذلك، ويطعنون على من لم يأخذ بذلك من أهل العلم، ونساء اقتفين في ذلك أثرهم، وعملن في ذلك على نحو عملهم، وقوم استحسنوا ذلك وصوّبوا فيه رأيهم، فما الحكم فيهم وفيمن رأي رأيهم، هل تجوز إمامتهم وتقبل شهادتهم أم لا ؟ بيّنوا لنا ذلك".

ومما جاء في جوابه: "فالجواب فيه ما قاله بعض أئمة الدين من علماء المسلمين الناصحين، حين سئلوا عن ذلك من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر:" أن بني إسرائيل افترقت على اثنين وسبعين فرقة، وأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة،و قد ظهر ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من افتراق أمتة على هذه الفرق، وتبين صدقه صلى الله عليه وسلم وتحقق، ولم يكن أحد في مغربنا من هذه الطوائف فيما سلف، إلى أن ظهرت هذه الطائفة الأمّية الجاهلة الغبيّة، الذين ولعوا بجمع أقوام جهال، فتصدوا إلى العوام الذين صدورهم سالمة، وعقولهم قاصرة، فدخلوا عليهم من طريق الدين وأنهم من الناصحين، وأن هذه الطريق التي هم عليها هي طريق المحبين، فصاروا يحضونهم على التوبة، والإيثار،و المحبة، وصدق الأخوة، وإماتة الخطوط والشهوة، وتفريغ القلب إلى الله بالكلية، وصرفه إليه بالقصد والنية، وهذه الخصال محمودة في الدين فاضلة، إلا أن الذي في ضمنه على مذاهب القوم سموم قاتلة، وطامّات هائلة، وهذه الطائفة أشدّ ضررا على المسلمين من مردة الشياطين، وهي أصعب الطوائف للعلاج"[47]، ثم يقول:" وأما ما ذكرتموه من أفعالهم واشتغالهم بالرقص والغنا والنوح، فممنوع غير جائز، قال الله تعالى:﴿ و من الناس من يشتري لهو الحديث﴾ [48](الآية)،

---

(45)الونشريسي: المعيار،ج 11، ص41.

(46)نفسه، ج11، ص 42.

(47) ج11، ص30.

(48)سورة لقمان آية 6.

قال ابن مسعود:" هو الغنا والذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث [...] وأمّا ما ذكرتموه من قراءة القرآن والاستماع إليه، فإنه جائز وفيه قربه وطاعة لله عز وجل، قال الله تعالى:﴿ وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له﴾"[49] "[50].

كما حاء في رده(الشيخ أبى فارس عبد العزيز بن محمد القيرواني) عن سؤال حول بعض ما يفعله المتصوفة قوله فيما يتعلق بالكرامة:"ولا تغتروا بهم، ولو أنهم يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، فإن ذلك فتنة لمن أراد الله فتنته، وعلم شقوته، قال الله تعالى:" ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا "[51]، فلا يغتر أحدكم بما يظهر من الأوهام والخيالات، من أهل البدع والضلالات، ويعتقد بأنها كرامات، بل هي شرك وحبالات، نصبها الشيطان ليقتنص بها معتقد البدع ومرتكب الشهوات"[52].

وكان جواب فقيه بجاية وصالحها أبو زيد سيدي عبد الرحمن الواغليسي[53] عن مثل هذا السؤال بقوله:" قد نص أهل العلم فيما ذكرت من أحوال بعض الناس، من الرقص والتصفيق، على أن ذلك بدعة وضلال، وقد أنكره مالك وتعجب ممن يفعل ذلك لمّا ذُكر له أن أقوما يفعلون ذلك فقال: " أصبيان هم أم مجانين ؟ ما سمعنا أحد من أهل الإسلام يفعل هذا" [...] وقد قال القرطبي:" إن ذلك مما لا يُختلف في تحريمه، وقد انتهى التواقح بأقوام إلى أن يقولوا:" إن تلك الأمور من أبواب القرب وصالح الأعمال، وإن بذلك يتم صفاء الأوقات وسنيات الأحوال، فنعوذ بالله من البدع والضلال"، وهذا الذي يقولون هو الذي يعتقده أهل زماننا في غالب ظني".[54]

وجاء عن الإجابة على السؤال نفسه من طرف الفقيه أبي عبد الله الحفار[55] بقوله:" أن هذا الطائفة المنتمية للتصوف في هذا الزمان، وفي هذه الأقطار، قد عظم الضرر بهم في الدين، وفشت مفسدتهم في بلاد المسلمين،لا سيما الحصون والقرى البعيدة عن الحضرة، هنالك يظهرون ما انطوى باطنهم من الضلال، من تحليل ما حرم الله والافتراء عليه وعلى رسوله، وبالجملة فهم قوم استخلفهم الشيطان على حلّ عرى الإسلام وإبطاله، وهدم قواعده، ولسنا لبيان حال هؤلاء، فهم أعظم ضررا على الإسلام من الكفار"[56] ثم قال:" فالواجب على من قدر على هؤلاء الذين هم كالأكلة في جنب الدين، أن

---

(49)سورة الأعراف آية 204.

(50)الونشريسي: المعيار، ج11 ، ص 33.

(51)سورة المائدة، آية 41.

(52)الونشريسي: المعيار، ج11، ص 32.

(53)أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الواغليسي ،الفقيه، الأصولي، المحدث، المفسر ،شيخ الجماعة ببجاية، توفي سنة 786هـ/1384م، انظر ترجمه في: التنبكتي: النيل، ص 248. مخلوف: الشجرة، ص237.

(54)الونشريسي: المصدر السابق ، ج 11، ص 34.

(55)أبو عبد الله محمد بن علي شهر بالحفار، الأنصاري، الغرناطي، الإمام، المحدث والمفتي، توفي سنة 811هـ/1408م، انظر ترجمته في: التنبكتي: النيل، ص 477. مخلوف: الشجرة، ص 247.

(56)الونشريسي:المصدر السابق، ج11، ص 42.

يمنعهم، ويحول بينهم وبين ما هم بسبيله، وأن يجلّيهم عن موضعه، فهو في ذلك مجاهد مأجور، فمفاسدهم متعددة دينا ودنيا"[57]، ثم قال عن الفقهاء الدين يحضرون جلساتهم:" إن حضور الفقهاء معهم ليس بدليل على الجواز، ولا عدمه دليل على المنع، ولا يعرف الحق بالرجال بل الرجال يعرفون بالحق، فالفقيه إذا حضر معهم، ووافق واستحسن فعلهم، فهو مثلهم، بل هو شر منهم، وهو باسم الفسق أولى منه باسم الفقه"[58].

ومن خلال هذه النصوص بأسئلتها وأجوبتها، يتبين ذلك الاختلاف المثير حول هذه الفئة، وهو اختلاف يدور بين الحلّ والحرمة، ويتعدى في بعض الأحيان إلى إخراجهم من الملة ؛ ولاشك أن هذا الاختلاف مرده بالدرجة الأولى إلى طبيعة أعمال الجماعة التي طُرح حولها السؤال، وطبيعة السؤال نفسه، فقد أكد الشاطبي بأن بعضا من الصوفية ولكي ينتصروا لأنفسهم ويلبس ما يقومون به بلباس شرعي، كانوا يطرحون أسئلة على شيوخ الوقت ولكنهم " يُحسّنون ظاهرها بحيث يكاد باطنها يخفى على غير المتأمل"[59]،حتى يظفروا بفتوى تجعلهم في حلّ من أعمالهم، وتحسن صورتهم، وتقوي عضدهم في المجتمع؛ كما يرجع الاختلاف كذلك إلى طبيعة المجيب، فإن كان من المتصوفة كانت ردوده مبرئة للكثير من أعمالهم، وإن لم يكن منهم جاءت ردوده مشنعة عليهم، لذا نشب صراع محتدم بين هذين الرأيين.

الموقف الثالث:المستبين والفارز.

هذا الموقف فتاواه كانت تنظر إلى أعمال الصوفية على أساس الفرز لكل عمل فما كان موافقا للسنة في نظرهم قبلوه واثنوا عليه وما كان مخالفا للسنة أنكروه وحرموه وعوا إلى نبذه. وهذه بعض الفتاوى التي أشارت إلى ذلك.

وسئل الأستاذ أبو سعيد بن لب[60] عن رجل رغّب الناس في طريقة فقراء زماننا في المسجد له عظم على رؤوس الناس، وقد قال:" هذا الذي يذم الفقراء، إن ذمهم لأجل حلق الذكر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثنى عليها ورغب فيها"، فحمل الذكر الوارد فيها على فقراء زماننا، ثم قال:" وإن ذمهم لأجل الغناء والسماع، فإن عائشة رضي الله عنها كانت أغنى الناس وأعرفهم بالشعر، وكذا أبوها أبو بكر

---

(57)المعيار، ج11، ص44.

(58)المعيار ج11، ص45.

(59)الإعتصام، ص193.

60هو أبو سعيد فرج بن أحمد بن لب نشأ بغرناطة ودرس بها وكان من أكابر علماء المالكية، توفي بغرناطة سنة 782هـ/1382م، انظر ترجمته في:

ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص253.

المقري: نفح الطيب، ج5، ص 509.

وأختها أسماء"، فأنكر عليه فقال:" ما أردت بأغنى الناس إلا غنى المال"، ثم تأمل مقالته وعلم أن المساق لا يعطي ذلك فأنكر وقال:" إنما قلت أعرفهم بالشعر..."[61].

فكان مما أجاب:" والغالب في مجالس الذكر المذكورة في الأحاديث التي يتلى فيها كتاب الله تعالى لقوله عليه السلام:" ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة " (الحديث) والتي يتعلم فيها العلم والدين [...] وأما مجالس الذكر اللساني بالتهليل والتحميد والتقديس، فقد صرح بها حديث الملائكة السياحين، لكن لم يذكر جهر فيها بالكلمات ولا رفع صوت " [...] قال عليه السلام:" اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا"، وفقراء الوقت قد تحيزوا بآيات، وتميزوا بأصوات، هي إلى الاعتداء (الدعاء والصوت العالي المفرط) أقرب منها إلى الاقتداء، وطريقتهم إلى اتخاذها، مأكلة وصنعة، أقرب منها إلى اعتدادها قربة وطاعة، وفي الحديث " خير الذكر الخفيّ"، ومما وقع في المكتوب ذكر الغنا والسماع، فقد تكلم الناس في ذلك بكلام طويل مع اختلاف كثير"[62].

وسئل أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بأبي البركات[63] بن الحجاج البلقيقي"عن زاوية للغرباء يجتمعون لهم فيها ما يقوتهم، ويؤنسونهم بالمجالسة، ويجتمعون على الأكل والذكر وإنشاد الشعر، ثم يبكون ويشطحون في فصول كثيرة"، فأجاب:" [...] إذا كان الأمر على ما كان أعلاه فقد جرى العمل بالعدوتين على المسامحة فيه، إن فرض أن يتخلل ذلك ما يتردد المجتهد في إجازته ورده بما يقترن به من الخشوع، والصدقات، وإرفاد ابن السبيل مكفر له إن شاء الله"[64]، وكتب الأستاذ ابن لب على هذه الفتوى قائلا:" وقفت على السؤال والجواب ووافقت على صحة الجواب المقيد وقلت بمثله، والله الموفق بفضله"[65].

وكان من أبرز مظاهره تلك الردود التي وقعت بين ابن مرزوق الحفيد، وقاسم بن سعيد بن محمد العقباني، فقد كان لهذا الأخير رد مطول على سؤال ورد إليه بهذا الخصوص، وقد أقرّ في جوابه الذي يقع في خمس وعشرين (25) صفحة، كما أوردها صاحب المعيار[66]، شرعية ما يقوم به المتصوفة في الزاوية، وحاول تأصيل كل ما فعلوه، وجاء في مقدمة رده: "الحمد لله، ما ذكرت أعلاه من قول أو فعل،

---

61 الونشريسي: المعيار، ج11، ص 35.

62 نفسه، ج11، ص 35-36.

الشاطبي: الاعتصام، ص 197.

(63) محمد بن محمد بن إبراهيم، قاضي الجماعة ،وشيخ المحدثين،و الفقهاء،و الأدباء، والصوفية بالأندلس، توفي سنة771هـ/1369م، انظر ترجمته في:

التنبكتي: النيل، ص 428. المقري: نفح الطيب، ج5، ص471. مخلوف: شجرة، ص 229.

(64)المعيار ج11، ص 38.

(65)نفس المصدر والمكان.

(66) الونشريسي: المصدر السابق ،ج11، ص48-73.

فهو حسن، وأكثره مثني عليه شرعا، وليس فيه إن شاء الله موضع للنهي، بل هو دائر بين المرغب فيه، والمندوب إليه، ونحن نذكر في أكثر ذلك أدلة فضله والندب إليه، وما يرشدك ويهديك إلى المواضبة عليه، ولقد حضرت مجتمعهم مرّتين، فما رأيت إلا تعاونا على البر والتقوى، وبعدا على الإثم والطغوى"[67]، وهذه بعض الأدلة التي ساقها، فعن سؤال جلوس الشيخ إلى يمين الداخل لمجلسهم قال:"ذكرت جلوس الشيخ عن يمين الداخل وذلك حسن من فعله، وللشيخ ابن رشد:"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن في شأنه كلّه"[68]، وعن سؤال مفاده أن خديم الشيخ يُخرج سبحة منظومة في خيط بها عدد معلوم قُصد به الإحصاء للتسبيحات، والتهليلات، والضبط، فأجاب:" وذكرت أنهم يأخذون بإثر جلوسهم التسبيح، والتمجيد، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، إلى أن يكملوا عددا معينا و،كل هذا سائغ مرغب فيه، مجمع على فضله، وهو الركن القوي في طريق الحق سبحانه، قال أبو القاسم القشيري:" بل هو العمدة في هذا الطّريق، فلا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر"، ومن خصائصه أنه غير مؤقت، بل ما وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور فيه بذكر الله إما فرضا، وإمّا نفلا، وقالوا:" الذكر منشور الولاية، فمن وُفق إلى الذكر فقد أعطى المنشور، ومن سُلب الذكر فقد عُزل" [...]وقد تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة أن الذكرَ أفضلُ الأعمال وأجلُّ الأقوال، قال الله تعالى﴿ يأيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبّحوه بكرة وأصيلا، هو الذي يصلي عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما، تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما﴾ [69]"[70]. وجاء في سياق فتواه قوله:"وقد يقع من بعض رقص وتصفيق بخفة وطيش، ويزعم مع ذلك أنّه طاش لله وذهب قلبه، وإنّما يصدر مثل هذا من الغبي الجاهل، ولا يصدر من العاقل الفاضل، قال بعض الأئمة:و يدلّ على جهالة فاعله أنّ الشريعة لم ترد بذلك في كتاب ولا سنّة، ولم يفعله أحد من السّلف، وإنّما يفعل ذلك الجهلة السّفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد يصدر من بعضهم الصّياح والتّغاشي والتّباكي تصنعا، ومن بعضهم ضرب الصدور، ونتف الشعور، وكل هذه الأمور محرمة، وفي مثلهم وقعت أجوبة من مصر بالإنكار والنسبة إلى الرعونة والرّياء، ووصفهم بالمين والكذب، وأنهم يحذرون بئيس ما صنعوا لإيهامهم أنّ فعلهم من الطاعة، وإنّما هو أقبح الرعونات، والخير كله والسعادات بأسرها في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون "[71].

وكان للعالم ابن مرزوق (الحفيد) رأيا مخالفا ومعارضا لرأي قاسم العقباني في هذه المسألة، وقد ذيّل الونشريسي جواب قاسم العقباني سالف الذكر بقوله:" قلت: للشيخ الحافظ المحقق أبي عبد الله بن

---

(67) الونشريسي: المعيار، ج11، ص50 .

(68)نفسه، ج11 ، ص50 ، 51.

(69) سورة الأحزاب ، آية 41 -43.

(70) الونشريسي: المصدر السابق ، ج11 ، ص54-55.

(71) الونشريسي: المعيا ر، ج11 ، ص62.

مرزوق (الحفيد)رحمه الله في الرد على هذا الجواب تأليف، وكلام شاف، ويشتمل على سبعة كراريس، منع من إثباته عقب هذا الجواب، واستفاء كلامه وجلب فوائده، طوله"[72]، وعنوان هذا الرد كما جاء في البستان هو "النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص"[73].

والملاحظة الأولى التي يمكن رصدها هي أن جل الفقهاء بمواقفهم المختلفة لم يكونوا من المتصوفة بالمعنى المتداول عمليا في ذلك العصر حتى أولئك الذين كانت مواقفهم موافقة لهم.

والحق أن هذه المرحلة قد شابها نوع من الغموض، ويمكن تشبيهها بالمرحلة المتوسطة، أو بالمرحلة الانتقالية، حيث استغنى فيها العلماء عن التعليم، واقتصرت على الأوراد والأذكار، والأمداح النبوية، لذلك انقسم العلماء في تقدير شرعيتها، وكلٌّ ينظر إليها بمنظاره الخاص، فإذا عدنا إلى قاسم العقباني الذي وصل إلى درجة الاجتهاد[74]، وكان شيخا للقلصادي في بعض العلوم العقلية[75]، نراه أميل إلى طريقة التصوف، وقد ألف فيه أرجوزة[76]، لذلك لم يكن في وسعه إلا تدعيم هذه الطريقة والوقوف إلى جانبها بفتوى مطولة، وأن كل ما يقومون به في نظره، لا يعدو أن يكون مما يباح فعله، وقد شدّد بعنف في سياق فتواه السابقة على كل من يحاول الخروج عن الدين، والاستهتار[77]بقيمه، مما يؤكد أنه كان يناصر التصوف السني الصحيح، ولم تكن مناصرته أبدا للشعوذة والدروشة، فقد جاء في سياق فتواه.

أما ابن مرزوق (الحفيد)، فالظاهر أنه لم يكن يقصد برده التهجم على علم التصوف السني، الذي لا يخرج عن إطار الإسلام الصحيح، ذلك أنه كان يدّرس التصوف من كتاب الإحياء للغزالي[78]، وقد ذكر تلميذه أبو الفرج ابن أبي يحيى الشريف التلمساني[79] بأنه " ألبسه خرقة التصوف، كما ألبسه أبوه وعمه"[80]، وإنما كان تهجمه على الطرق الجديدة غير الشرعية التي انتهجها المتصوفة، وأصبحت شيئا فشيئا تنحرف عن الإسلام الصحيح.

---

(72) الونشريسي: المعيار، ج11، ص73.

(73) ابن مريم: البستان، ص 211 ، وقد أكد بأن هذا التأليف الطويل الذي يقع في سبعة كراريس هو وبلديه الإمام قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية لما صدق العقباني صنيعهم، وخالفهم ابن مرزوق" . في " الرد على عصريه

(74) القلصادي: الرحلة، ص106. ابن مريم: المصدر السابق، ص147، 148 .مخلوف: شجرة النور الزكية ص 255.

(75) القلصادي: المصدر السابق، ص 107. ابن مريم: المصدر السابق، ص 148.

(76) ابن مريم: المصدر السابق، ص 148. مخلوف: المرجع السابق ص 255.

(77) الونشريسي: المعيار، ج11، ص62.

(78) ابن مريم: البستان، ص206.

(79) أبو الفرج أحمد ابن أبي يحي الشريف التلمساني، علامة محقق ومفسر، توفي سنة 895هـ/1489م، انظر ترجمته في: ابن مريم: البستان المصدر السابق، ص 44. مخلوف: شجرة النور الزكية ص 267.

(80) ابن مريم: المصدر السابق ، ص 206.

وقد أيد ابن مرزوق (الحفيد) كثير من علماء الأندلس، والقيروان، وفاس[81]، وامتدت منصارة قاسم العقباني إلى عهد الإمام محمد بن يوسف السنوسي الذي ألف كتابه المسمى:" نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير"[82]، وانتصر له هو كذلك " شيخاه عبد الرحمن الثعالبي، دفين الجزائر، والحسن أبركان الراشدي دفين تلمسان"[83].

ويبدو أن انقسام العلماء وأهل الفتيا حول هذه المرحلة "بين منكر عليهم ومسلّم لهم"[84]، لم يكن مرده إلى تعارض الأدلة الشرعية في الحكم على هذه الطريقة، وإنّما في المنظار الذي تُرى من خلاله من قبل العلماء، هذه المرحلة التي كان يكتنفها الغموض، وكانت خليطا من الأمور الشرعية وغير الشرعية[85]، وظهرت فيها طرق وعوائد ظاهرها شرعي، وباطنها متجه إلى الانحراف، مما فسح المجال إلى تعدد الفتوى، وكل ينظر إلى المسألة من الجانب الذي يراه .

ثم نرى بعد ذلك أن تسارع الأحداث السياسية في المنطقة كلها قد سرع من كثف من وجود هذه الأعمال وانتشارها وابتعادها عن التصوف السني، وانسياقه نحو التصوف العملي[86] المنحرف، بعد أن هجرها الفقهاء والعلماء الذين عايشوها من قبل، وتُركت فريسة للاعتقادات والعوائد الغريبة عن الدّين، والتي أصبحت فيما بعد عقيدة في حدّ ذاتها، لا يمكن الخروج عنها بله التفريط فيها، وكان ذلك سببا إضافيا لرميها بالتبديع في الدين من طرف الفقهاء.

وقد شدّد العلماء على هذه الفئة، وحرموا طريقتهم، ورموهم بالتبديع في الدين، وقالوا بعدم جواز إمامة من يرى مذهبهم ويسلك طريقتهم، قال الإمام الشاطبي:" فلا يُصلَّى خلف واحد منهما حتى يتوبا إلى الله من ذلك، ويظهر عليهما أثر التوبة، فإنه لا تجوز الصلاة خلف أهل البدع، نص على ذلك العلماء"[87].

تحليل المواقف:

لقد ساهمت في رسم هذه الصورة عوامل من أبرزها الأحداث التاريخية التي مرّ بها المغرب الإسلامي قاطبة، حيث سادته اضطرابات سياسية كبيرة، وتعرضت دوله إلى حروب شبه دائمة، لا تكاد

---

(81) المهدي البوعبدلي: أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، رجب-شعبان، 1395هـ جويلية أوت 1975م، ص 127.

(82) نفسه ، ص127 . وجمال الدين بوقلي: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1405هـ/1985م، وقد قام بتحقيق هذا الكتاب (نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير) في آخر رسالته ص 387- 444.

(83) المهدي بو عبدلي: المقال السابق، ص127.

(84)ابن خلدون: المقدمة، ص 517.

(85) الشاطبي: الإعتصام ،ج1، ص 193.

(86) سعد الله: تاريخ الجزائر، ج1، ص41.

(87)الونشريسي: المعيار ، ج11، ص41.

تهدأ في منطقة حتى تثور في أخرى، من لدن الدولة الحمادية والمرابطية والموحدية، إلى الدول الثلاث المتصارعة التي قامت على أنقاضها، وهي الدولة المرينية،و الزيانية، والحفصية[88].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض المغرب الإسلامي إلى هجمات متكررة على سواحله، ومدنه من طرف الأجانب النصارى، وقد أرخ ابن قنفذ في الفارسية لبعض تلك الغارات، وجعلها من الحوادث العظام[89].

ولا شك أن هذه الحروب الداخلية والخارجية قد أحدثت خرابا كبيرا في العمران[90] والاقتصاد، وأحدث خرابا كبيرا في النفسية المغاربية التي لم تعد تشعر بالأمن والأمان، لا على حياة الفرد منها فحسب، بل على بقاء الدولة كنظام يفي بمتطلبات الناس من الأمن على الأرواح والأرزاق .

ولعل حادثة الحصار التي تعرضت له تلمسان على يدي المرينين تعطي صورة واضحة للهزات والشروخ النفسية التي كان يعانيها المجتمع، إذ استمرت هذه المعاناة ثماني سنين وثلاثة أشهر، "ونالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف، والقطط، والفئران، حتى زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخرجوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب، وسائر المرافق، بما تجاوز حدود العوائد، وعجز وجدهم عنه..."[91]،و بلغ عدد الموتى من جراء الحصار " زهاء مائة ألف وعشرين ألفا"[92]، ولما فرّج الله كربتهم وانفك الحصار،" فكأنما نُشروا من الأجداث"، وكتبوا لها في سكتهم "ما أقرب فرج الله" استغرابا لحادثتنا"[93].

ولا شك أيضا أن هذه الحروب والقلاقل الداخلية والخارجية كان لهما مفعولها القوي في إحداث الفوضى في كل شيء، إن من الناحية الأمنية أو الاقتصادية أو الثقافية، وحتى العقائدية، وأضحى الخوف

---

(88)انظر في ذلك:

ابن خلدون: العبر، ج6، ص 202، وما بعدها، وج7، ص 93 وما بعدها.

التنسي: نظم الدر، ص113 ومابعدها.

(89)ص131، حيث نزل النصارى في سنة 668هـ/ 1269م "بسبعة من الملوك، وبكثرة من العدد، والخيل، والأخبية، ومكثوا ثلاثة أشهر ونصف ،و دفع لهم من المال فى الصلح ألف قنطار من الفضة" ص132 .

وفى سنة 696هـ/1296م وصلوا الى مرسى تو نس ثم اقلعوا .

وفي سنة 792هـ/1389م نزل النصارى لمهدية وخيب الله سعيهم، ص188 .

وفي سنة801 هـ/1398م أخذ النصارى تدلس ، وبلد العناب ،و دهش الناس منهم ،ص196.

(90) ابن خلدون: المقدمة ، ص 159.

(91)ابن خلدون: العبر، ج7 ، ص 113. وانظر كذلك:

يحي بن خلدون: البغية ،ج1، ص 211. التنسي: نظم الدر، ص115.

(92)ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص211.

(93)ابن خلدون: العبر ،ج 7، ص 114.

الشديد، والرهبة الكبيرة، مسيطرين على الحياة العامة للمجتمع، وأصبح الإنسان يلتجئ إلى أيّ ملجأ يمكن أن يكون سندا له في مقارعة هذه المصاعب الجمّة، حتى يضمن سلامته وقوته.

ونظرا لاستمرار هذه الأزمات، وسيطرت الخوف والهلع على الحالة النفسية العامة للمجتمع، وما جرّ عنه من ترد للأحوال الاقتصادية والاجتماعية، ولم يكن ثَمّة من أمل في حلول تستوعب أفراد الأمة وتنتشلها من هذه المحن، وانتشار روح اليأس والعجز، صار الناس يبحثون عن أي ملجأ يلتجئون إليه لانقاد حالهم، ويتطلعون إلى الحلول المعجزة، وأصبحوا يبحثون عن أي خبر يمكن أن يكون أملا في النجاة والخلاص، وفي هذه الظروف يمكن لأية إشاعة فيها أمل، أن يعض القوم عليها بالنواجذ، ولذلك كان انتشار الأخبار الكرامية التي عادة ما تحاط بشيء من العلاقة بالله لتمريرها، وتيسير عملية الاعتقاد والإيمان بها، جزءا من المتنفس العام، ومحاولة الترويح عن النفس والخروج من دائرة اليأس، وتحولت بمرور الزمن، وكثرة المردّدين لها، والمؤمنين بها، مع بقاء الظروف السالفة القاسية، إلى دواء ملازم، واكتسبت طابع القداسة بحيث لا يستطيع المرء القول فيه إلا بالاستسلام والقبول دون تشكيك أو ريب، وتَحوّل المجتمع بعد ذلك إلى مجتمع مستسلم لهذه الأخبار، يبحث عنها، ويقدس الأولياء، ويبحث عن قبورهم، وأقوالهم الكرامية، وصارت تلك الأخبار والقصص الكرامية، جزءا من الحل الذي يرتقبه ويتسلى به الناس، وولع الناس بها، وتحولت الكرامة إلى عقيدة تنبىء عن الغيب والمستقبل، وتعطي للناس حلولا جاهزة،لا علاقة لها بالكدّ والاجتهاد.

وخلاصة القول فإن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في الدولة الزيانية، ساهمت بشكل فعّال في امتداد هذه الفئة على المستوى الشعبي وعلى المستوى العقلي،" ففي هذه القرون التي أعقبت تفكك الموحدين وسقوط دولتهم، وشهد فيها المغرب هذه الفترة القلقة المفعمة بالاضطرابات السياسية، وعرف إبانها الأطماع الأجنبية، سرت في جميع أجزائه روح غريبة، جعلت الشعب يُقبل إقبالا لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف، وينخرط في الزوايا والربط، ويؤمن بالأولياء وكرامتهم، ويتناقل خرقهم للعادات، وإخبارهم بالمغيبات، واحتجابهم عن الأنظار، إلى غير ذلك من التصاريف، وهو مأخوذ كأنّه قد أصابه مس من الجن، ثم نجده يندفع في زيارة قبور هؤلاء الأولياء وأضرحتهم، ويقيم حلقات الذكر حول قبابهم"[(94)].

ملخص موضوع نظرية المعرفة عند المتصوفة
ومواقف الفلاسفة والمتكلمين منها

[(94)] سعد الله: تاريخ الجزائر، ج1، ص39.